النبّى صلى الله عليه وسلم كان إذا سلّم وثب. وكان **أبو بكر** رضى الله عنه إذا سلمّ وثب. وكان **عمر** رضى الله عنه إذا سلّم وثب. وفى الخبر المشهور أنه لم يكن يقعد إلاّ قدرّ قوله اللّهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام، ثم ينصرف. وإنْ تحول المأموم فصلّى النافلة فى غير مكان الفريضة ولو بقدم فحَسَن، ففى ذلك أثر، فإنْ جلسا قليلا للتسبيح والدعاء فلا بأس. وهذا آخر كتاب الإمامة.

الفصل الثالث والاربعون

فى كتاب الاخوة فى الله تبارك وتعالى. والصحبة والمحبة للإخوان . واحكام المؤاخاة واوصاف المحبين

ذَكّر الله عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم فى الدين إذ ألفّ بين قلوبهم بعد أنْ كفروا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخوانا بالألفة متفقين، وعلى البرّ والتقوى مضطجعين، ثم ضمّ التذكرة بالنعمة عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهُداه، ونهى عن التفرّق إذ جمعتهم الدار وقرن ذلك بالمِنّة منه عليهم، إذ أنقذهم من شفا حُفرة النار. وقد جعل ذلك كله من آياته الدالّة عليه سبحانه وتعالى وسبُله الواصلة بالهداية إليه، فقال فى جُمل ماشرحناه «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تفرّقوا**» إلى «**ولعلكم تهتدون**».

وقد كانت **المؤاخاة** فى الله تعالى **والصُحبة** لأجله، **والمحبة** له فى الحضَر والسفَر، طرائق للعاملين. فى كل طريق فريق، لما فى ذلك من الفضل، ولما جاء فيه من الأمر والندْب، إذ كان الحب فى الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان، وكانت الألفة والصحبة لأجله والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين. وقد كثرت الأخبار فى تفضيل ذلك والحثّ عليه. وليس قصدنا الجمع لما روى لميلنا إلى الإيجاز فى كل فن، ولكن نذكر الأفعال المستحسنة وما تعلّق بها ممالابد منه. على أنّ رأى التابعين قد اختلف فى التعرّف، فمنهم من كان يقول أقلّ من المعارف فإنه أسلم لدينك وأقلّ غداً لفضيحتك، وأخفّ لسقوط الحقوق عنك، لأنه يُقال كلما كثُرت المعارف كثُرت الحقوق، وكلما طالت الصُحبة توكدت المراعاة. وقال بعضهم هل رأيت شراً إلاّ ممن تعرف، فكلما نقص من هذا فهو خير. وقال بعضهم أنكرْ من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف. وممن مال إلى هذا الرأى **سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم وداود الطائى والفضيل بن عياض وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى**

ويشر الصافي. وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل بالتاليف والتحبب إلى المؤمنين، لأن ذلك زيْنٌ فى الرخاء وعوْنٌ فى الشدائد، وتعاوُنٌ على البرّ والتقوى وألفةٌ فى الدين. وقال بعضهم استكثِرْ من الإخوان فإنّ لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك. وكانوا يأمرون بالأخوة ويتحاضّون على الألفة. ويقال إذا غُفر للعبد شفع فى إخوانه. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** حديثا غريباً فى تفسير قوله تعالى «**ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله**»، قال يشفّعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. وممن مال إلى هذا الطريق **ابن المسيب والشعبى وابن أبى ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك بن عبد الله وابن عيينة وابن المبارك والشافعى وأحمد بن حنبل** ومن وافقهم. وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنّ أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقاً، الموَطّؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون. وروينا عنه **صلى الله عليه وسلم المؤمن** مألوف ولا خير فيمن يألف ولا يؤلف. وقد قيل أول مايُرفع من هذه الأمة الخشوع ثم الورَع ثم الأمانة ثم الألفة. وفى **الخبر** من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً، إنْ نسى ذكّره، وإنْ ذكر أعانه. وروينا فى **خبر** مَثَل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلاّ أفاد الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيرا. وروينا فى خبر عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** من آخى أخاً فى الله عز وجل رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشىء من عمله. ويقال إنّ الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تُلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض، لأن الأخوّة عمل كالولادة. وقد قال الله سبحانه بعد قوله «**ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء**»، أى وما نقصناهم. وقال تعالى مخبراً عمّن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته «**فمالنا من شافعين ولا صديق حميم**»، ومعنى حميم أى همِيم، أبدلت الحاء هاء لتقاربهما، مأخوذ من الاهتمام، أى مهتم بأمره، ففيه دليل أن الصديق لك هو المهتم بك، وأنّ الاهتمام حقيقة الصداقة.

وروينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** المؤمن كثيرٌ بأخيه. وعن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه ما أعْطى عبدٌ بعد الإسلام خيراً من أخٍ صالح. وقال أيضا إذا رأى أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به، فقلما تصيب ذلك. وقد قال بعض الحكماء فى معناه كلاما منظوماً:

ما نالت النفس على بُغية * إلاّ مِن وُدّ صديق أمين

من فاته ودّ أخ صالح * فذلك المقطوع منه الوتين

وقد يروى هذا المصراع الثانى **فذلك المغبون حقاً يقين**.

وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** كونوا مؤلّفين ولا تكونوا منفّرين. وفى الحديث إنّ أحبكم إلى الله عز وجل الذين يألفون ويؤلفون، وإنّ أبغضكم إلى الله عز وجل المشّاؤن بالنميمة المفرّقون بين الإخوان. وفى أخبار **داود** صلى الله عليه وسلم أنه قال: يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم وأسلّم فيما بينى وبينك. قال: خالِقْ الناس بأخلاقهم وأحسِنْ فيما بينى وبينك. وفى بعضها خالقْ أهل الدنيا بأخلاق الدنيا، وخالقْ أهل الآخرة بأخلاق الآخرة. وقال **الشعبى** لابن أخيه خصلتان أوصيك بهما فاحفظهما، خالصْ المؤمن مخالصة، وخالقْ الفاجر مخالقة، فإن الفاجر يرضى منك بالخُلق الحَسَن، وإنه لحقٌ عليك أن تخالص المؤمن. وقد قال **أبو الدرداء** قبله إنّا لنشكر فى وجوه أقوام، وإنّ قلوبنا لتعلتنهم، فمعنى هذا على الثقة والمداراة ليدفع بذلك شرّه وأذاه، كما جاء فى تفسير قوله تعالى «ادفع بالتى هى أحسن»، قيل السلام، «فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم». وكان **ابن عباس** يقول فى معنى قوله عز وجل «ويدرؤن بالحسنة السيئة»، قال يدفعون الفُحش والأذى وهو السيئة، بالسلام والمداراة وهو الحَسَنة. وقد كان أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومنه قوله عز وجل «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض**»، قيل بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة. وكذلك معنى قولهم خالص المؤمن وخالق الفاجر، فالمخالصة بالقلوب من المودّة واعتقاد المؤاخاة فى الله عز وجل، والمخالفة المخالطة فى المعاملة والمبايعة وعند اللقاء. وقد قال **محمد بن الحنفية بن علّى بن أبى طالب** رضى الله عنهم ليس بحكيم مَن لم يعاشر بالمعروف مَن لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله عز وجل له منه فرجا. فمعاملة غير تقىٍّ ومكالمته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقىّ ومصافاته من حُسن الاختيار.

وأفضل الأخوّة كما قال بعض العلماء المحبة الدائمة والألفة اللازمة من قِبَل أنّ الأخوة والمحبة عمل، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة به ليتم العمل فيكمل أجره، فإنْ لم يختم له بالآخرة، ولم يُحسن عاقبة الصحبة والمحبة، فقد أدركه سوء الخاتمة، وبطل عنه ما كان قبل ذلك، فقد يصطحب الاثنان ويتواخى الرجلان عشرين سنة، ثم لا يُختم لهما بحُسن الأخوّة،

فيحبط بذلك ما سلف من الصُحبة، فلذلك شرط العالم المحبة الدائمة والألفة اللازمة إلى الوفاة ليُختَم له به. وقد يقال ما تواخى اثنان فى الله عز وجل ففرّق بينهما إلاّ بذنب يرتكبه أحدهما، فقال بشَرٌ إذا قصّر العبد فى طاعة الله تبارك وتعالى سلبه الله عز وجل من يؤنسه. ويقال للعدو شيطان قد وكله بالتفريق بين المتواخيين ليس له عمل إلاّ ذلك قد تفرّغ له. ومن علامة التُقَى حُسن المقال عند التفرّق وجميل البِشر عند التقاطع. وأنشدنا بعض العلماء الحكماء فى معناه:

إنّ الكريم إذا تقضّى ودّه * يُخفى القبيح ويُظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تصرّم حبله * يُخفي الجميل ويُظهر البهتانا

فوصف الكريم فى هذا المعنى التخلّق بخلُق الربوبية. ألم تسمع إلى الدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أوله: يا من أظهر الجميل، وستر القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر... فكذلك صفات المؤمنين على معانى أخلاق المؤمن الأعلى. وقد كان أبو الدرداء يقول: معاتبة الصديق خير من فقده. وقد روينا عن علىّ عليه السلام: أحببْ حبيبك هوْناً ما، عسى أنْ يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما، وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه معناه: لايكن حبك كَلَفاً وبغضك تلفاً. يعنى إذا أحببت فلا تَكَلَّف كما يكلف الصبى بالشىء يحبه، وإذا أبغضتَ فلا تبغض بغضاً تحب أنْ يتلف صاحبك ويهلك. وفى وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعِشْ فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء وعُدّة فى البلاء، وضعْ أمر أخيك على أحسنَه حتى يجيئك ما يغلبك منه، واعتزلْ عدوك، واحذر صديقك من القوم إلاّ الأمين، ولا أمين إلاّ مَن خشى الله عز وجل، ولا تصحب الفاجر فتعلم فجوره، ولا تطلعه على سرّك، واستشرْ فى أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى. وقيل للأحنف بن قيس أى إخوانك أحبّ إليك؟ فقال من يسد خللى ويستر زَلّلى ويقبل عللى. وقال: من حق الصديق أن يُحتَمل له ثلاث، أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدالّة. ويقال: من لم يظلم نفسه للناس، ويتظالم لهم، ويتغافل عنهم لم يسلم منهم. وكان أسماء بن خارجة الفزارى يقول: ماشتمت أحدا قط، لأنه إنما يسأمنى أحد رجلين، كريم كانت منه زلة وهفوة فأنا ، أحق مَن غفرها وآخذ عليها

بالفضل فيها، أو لئيم فلم أكن أجعل عرضى له غرضا. ثم تمثّل شعراً:

واغفر عوراء الكريم اصطناعه * واعرض عن ذات اللئيم تكرما

وأنشدونا لمحمد بن عامر فى الإخوان شعراً:

فلا تعجل على أحد بظلم * فإن الظلمَ مرتعه وخيم
ولا تفحش وإنْ مُلِئتَ غيظاً * علَى أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب * فإنّ الذنب يغفره الكريم
ولكن داوِ عورته برقْع * كما قد يُرقع الخَلَق القديم
ولا تجزع لريْبِ الدهر واصبر * فإنّ الصبر فى العُقبى سليم

وأنشدونا فى معناه عن أحمد بن يحيى بن ثعلب، قال أنشدنى عبد الله بن شبيب:

إخاء الناس ممترج * وأكثر فعلهم سمج
فإن بدهته مقطعة * فليس وراءهم فَرَجٌ
فقوّمهم بوصلهم * فإنْ لم يوصلوا اعتوَجوا
صروف الدهر دائبة * تُقطع دونها المُهَج

وروينا عن عكرمة عن ابن عباس أنّ النبى صلى اللّه عليه وسلم قال لاتمار أخاً لك ولاتمازحه، ولا تَعده موعداً فتُخلِفه. وعن أبى هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسْطُ وجوه وحُسن خلق. وعن أبى نجيح عن مجاهد فى قول اللّه عز وجل« خذ العفو وأمر بالعُرف» ، قال خذ من أخلاق الناس ومن أعمالهم ماظهر من غير تحسس. وقد أنشدنا بعض الحكماء فى ذلك:

خذ من خليلك ماصفا * ودَع الذى فيه الكدَر
فالعمر أقصر من مُعا * تبة الخليل على الغِيَر

ومن عرف فضل الأخوّة فى الله عز وجل، وعلم درجة المحبة لله تعالى، صبر لأخيه وشكر له وحلم عنه، واحتمل له لينال ما أمِله فيه ، ويبلغ ما طلبه به ، فإنّ الصبر يُحتاج إليه ليتم العمل، والشكر لا بد له منه لدوام النعمة. ومن طلب نفيسا خاطر بنفيس، ومن رغب فى رغبة بذل لها مرغوبا، والله عز وجل الموفّق مَن يحب لما يحب.

وروينا فى حديث **عبادة بن الصامت** يقول الله عز وجل حقّت محبتى للمتحابين فىّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين والمتصادقين فىّ. وكان **ابن مسعود** يقول فى قوله عز وجل **لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألّف بينهم** ، قال نزلت هذه الآية فى المتحابين فى الله عز وجل. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله، منهم كذا، واثنان تواخيا فى الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرّقا. وكان **الفضيل بن عياض** وغيره يقول نظرُ الأخ إلى وجه أخيه على المودّة والرحمة عبادة. فلا تصحّ المحبة فى الله عز وجل إلا بماشُرِط فيها من الرحمة فى الاجتماع والخُلطة عند الافتراق، بظهور النصيحة واجتناب الغيبة، وتمام الوفاء ووجود الأنس، وفقْد الجفاء وارتفاع الوحشة، ووجْد الانبساط وزوال الاحتشام. وكان **الفضيل** يقول إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوّة. وقال **الجنيد** ماتواخى اثنان فى الله عز وجل ، فاستوحش أحدهما من صاحبه، واحتشم منه، إلاّ لعلّة فى أحدهما. ومن ذلك ماروى عن **النبى صلى الله عله وسلم** ماتحابّ اثنان فى الله عز وجل إلاّ كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حباً لصاحبه، وفى خبر كان أفضلهما. وفى الخبر الآخر أحب الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه. وفى الخبر المشهور لا يذوق العبد طعم الإيمان حتى يحب المرء، لا يحبه إلاّ لله. وقال **ابن عباس** فى وصيته **لمجاهد** ولاتذكُر أخاك إذا تغيب عنك إلاّ بمثل ماتحب أن تُذكَر به إذا غبت، واعفه بما تحب أن تُعفىَ به. وقال **يحيى بن معاذ** رحمه الله ثلاثٌ عزيزة فى وقتنا هذا. ذكَرَ منها حُسن الإخاء مع الوفا، ويعنى بالوفاء أن يكون له فى غيبته ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه مثل ما كان له فى شهوده ومعاشرته، ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له فى حياته، فهذا هو الوفاء، وهو الذى شرَطه النبى صلى الله عليه وسلم للمؤاخاة فى قوله اجتمعا على ذلك أو تفرقا. وكذلك قال بعض الأدباء قليل الوفاء بعد الوفاة خيرٌ من كثيره فى حال الحياة. وكذلك كان السلف فيما ذكره **الحسن** وغيره، قالوا كان أحدهم يخلُف أخاه فى عياله بعد موته أربعين سنة، لا يفقدون إلاّ وجهه. ويقال إنّ **مسروقا** أدان دَيْنا ثقيلاً وكان على

أخيه خيثمة دين، قال فذهب مسروق فقضى دَيْن خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دَيْن مسروق سراً وهو لا يعلم، فمن حقيقة المؤاخاة فى الله عز وجل إخلاص المودّة له بالغيب والشهادة، واستواء القلب مع اللسان، واعتدال السرّ مع العلانية فى الجماعة والخلوة، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوّة، وإنْ اختلف ذلك ففيه مداهنة فى الأخوة وممازقة فى المودة، وذلك دَخَلٌ فى الدين ووليجة فى طريق المؤمنين، ولا يكون ذلك مع حقيقة الإيمان. وقد سأل **أبو رزين العقيلى** النبى صلّى الله عليه وسلم، فشرط له أشياء منها أن يحب غير ذى نسب، لا يحبه إلاّ لله عز وجل. ومن شرط المحبة فى الله تعالى أن لا يكون لرحم يصلها أو لنعمة يربُّها كما جاء فى الأثر عن **رسول الله صلىّ الله عليه وسلم** أن رجلاً زار أخاً فى الله تعالى فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مَدْرجته مَلَكا، فقال أين تريد؟ قال أردت أخاً لى فى هذه القرية. قال هل بينك وبينه رحم تصلها؟ أو له عليك نعمة تربّها؟ قال لا، إلاّ أنى أحببته فى الله تعالى، قال فإنى رسول الله إليك أنّ الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه.

وقد اختلف **مذهب الصحابة** فى الأخ يحب أخاه فى الله عز وجل ثم ينقلب الآخر عما كان عليه ويتغير، هل يبغضه بعد ذلك أم لا؟ فكان **أبوذر** يقول إذا انقلب عمّا كان عليه وتغيّر فأبغضه من حيث أحببته. وروينا عن **أبى الدرداء** أنّ شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء، فكان يقدمه على الأشياخ ويقرّبه فحسدوه، وأنّ الشاب وقع فى كبيرة من الكبائر، فجاؤا إلى أبى الدرداء فحدّثوه وقالوا له لو أبعدته، فقال سبحان الله لا نترك صاحبنا لشىء من الأشياء. وروينا عن بعض التابعين وعن الصحابة فى مثل ذلك وقد قيل له فيه، فقال إنما أبغض عمله وإلاّ فهو أخى. وكذلك قال الله عز وجل لنبيّه فى عشيرته «**فإنْ عصوك فقل إنى برىء مما تعملون**» ، ولم يقل قل إنى برىء منكم، للُحمة النسَب. وقد قيل للصداقة لُحمة كلُحمة النسب. وقيل **لحكيم بن مُرّة** أيمّا أحبّ إليك، أخوك أو صديقك؟ فقال إنما أحب أخى إذا كان صديقاً. وكان **الحسن** يقول كم من أخ لك لم تلده أمك . ولذلك قيل القرابة تحتاج إلى مودّة، والمودّة لا تحتاج إلى قرابة. وفى حديث **النبى صلّى عليه وسلم** ، لمّا شتم القوم الرجل الذى أتى فاحشة، فقال مَهٍ، وزَبَرَهم، لا تكونوا عوْناً للشيطان على أخيكم. وفى أثرعن بعض العلماء فى مثل زلّات الإخوان، قال ودّ الشيطان أن يُلقِى على أخيكم مثل هذا حتى تقطعوه وتهجروه. وقد كان **أبو الدرداء** يقول إذا تغيّر أخوك وحالَ عما كان ، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يَعْوَجّ مرة ويستقيم أخرى. وكان يقول داوِ أخاك ولا تُطِع فيه حاسداً

فتكون مِثله. وقال **إبراهيم النخعى** لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضا لا تحدّثوا الناس بزلّة العالِم فإنّ العالِم يزلّ الزلّة ثم يتركها. وفى الخبر اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فيْئته. وعن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** شِرار عباد الله المشّاؤن بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبُرآء العَيْب. وقال **سعيد بن المسيب** إنى لأكره أن أفرق بين المتآلفين، وقال مرة بين المتحابين.

ومن أفضل **فضيلة الحب فى الله تعالى** أنه جُعِل علما لوجود الإيمان، وقُرِن بحب الله تعالى ورسوله صلّى الله عله وسلم، كما فى الخبر لايؤمن عبدى حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ثم جاء مثله- لايجد العبد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لله عز وجل. وكان **محمد بن واسع** يقول مابقى فى الدنيا شيء ألَذّه إلا ثلاث : الصلاة فى جماعة، والتهجد من الليل، ولقاء الإخوان. وكان بعضهم يقول **لقاء الإخوان** مسلاة للهمّ ومذهبةٌ للأحزان. وكان **الحسن** يقول إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا يذكّروننا الدنيا ، وإخواننا يذكّروننا الآخرة. وقال أحدهم لأن الأهل والولد من الدنيا، والإخوان فى الله عز وجل من آلة الآخرة. وعن **عطاء** قال، كان **الحسن** يقول تفقّدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإنْ كانوا مرضى فعودوهم، وإنْ كانوا مشاغيل فاعينوهم، وإنْ نسوا فذكّروهم. وكان **الشعبى** يقول فى الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه، ذلك **معرفة التوكل**. وقد روينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** أنه رأى **عمر** يلتفت يميناً وشمالاً فسأله، فقال يارسول الله أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه، فقال ياأبا عبد الله: إذا أحببت أحداً فسلّه عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإنْ كان مريضاً عدته، وإن كان مشغولا أعنته . وكان **سعيد بن العاص** يقول لجليسى علىّ ثلاث، إذا دنا رحّبت به، وإذا حدّث أقبلتُ عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقال **أكثم بن صيفى** لبنيه : يا بَنِّى- تقاربوا فى **المودة** ولا تتكلوا على القرابة. وقد قيل **لأبى حازم** ما القرابة؟ قال المودّة. وكان **عبد الله بن الحسن البصرى** يصرف إخوان الحسن إذا جاءوه لطول لبثهم عنده ، ولشدة شُغله بهم ، فيقول لهم لا تملّوا الشيخ؟ فكان الحسن إذا علم ذلك يقول دعهم يا لكع فإنهم أحبّ إلىّ منكم . هؤلاء يحبونى لله عز وجل ، وأنتم تريدونى للدنيا . وقال **أبو معاوية الأسود** إخوانى كلهم خيرٌ منى ، قيل وكيف ذاك؟ قال كلهم يرى الفضل لى عليه ، ومن فضّلنى على نفسى فهو خيرٌ منى . وقد روينا عن **رسول الله صلىّ الله عليه وسلم** المرء على دين خليله . ولا خير فى صُحبة من لايرى لك مثل ما يرى لنفسه .

وقد روى عن علّى بن أبى طالب كرّم الله وجهه، أنه قال لرجل كِره له صُحبة رجل رَهِق:

لا تصحب أخا الجهل * وإياك وإياه
فكم من جاهلٍ أردى * حليماً حين آخاه
يُقاس المرء بالمرء * إذا ما هو ماشاه
وللشيء من الشيء * مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب * دليلٌ حين يلقاه

وأنشد محمد بن جامع الفقيه شعراً:

تذلل لمن إنْ تذللت له * يرىَ ذاك للفضل لا للبُلّه
وجانبْ صداقة مَن لا يزال * على الأصدقاء يرىَ الفضل له

وأنشدنا لبعض الأدباء:

كم من صديق عرّفته بصديق * صار حظى من الصديق العتيق
ووفيق رأيته فى طريق * صار عندى محض الصديق العقيق

ورونا عن الحسن بن علّى عليهما السلام في وصف الأخ كلاماً رجزاً جامعاً مختصراً:

إن أخاك الحق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك * شتتّ شمل نفسه ليجمعك

ولا تصحّ مؤاخاة مبتدع فى الله تعالى، ولامحبة فاسق يُصحبَ على فسوقه، ولامحبة فقير أحبّ غنيا لأجل دنياه وما يناله من عاجل مهناه. وقد تصح المحبة بين الغنى والفقير، ولا توجد الأخوّة إنْ لم يقم الغنى بحقوق أخيه، وإذا لم يؤثره أخوه بما يحب أنْ يوثره به فلم يفتضّه. وقد تصح الأخوّة بين العالِم والجاهل، وبين الصالح والطالح، لأجل التدين من أحدهما والتقربة إلى الله عز وجل، ويكون من الأعلى منهما النيّات تكون له فيها، لحُسن

خلقه أو لجميل معاملته، أو لمعانٍ محمودة تكون فيه، أو لتواضع العالم والصالح فى نفسه فيراه فى كل حال فوقه، أو لأجل الستر عليه لئلا يلحقه النقص والشّين من الغير. فهذه طرقات الإخوان فيها حُسن نيّات. وينبغى على ذلك أنْ تعلّمه ماجهل، فيعُينه بعلمه كما يعينه بماله، فإنّ فقر الجهل أشد من فقر المال، وإنّ الحاجة إلى العلم ليست بدون الحاجة إلى المال. وكان **الفضيل** يقول إنما سمى الصديق، لتصدّقه والرفيق لترفّقه. فإن كنت أغنى منه فارفقه بمالك، وإنْ كنت أعلم منه فارفقه بعلمك. وينبغى أنْ ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبخّه بين الملأ ، ولا يُطلع على غيبه أحداً، فقد إن نصائح المؤمنين فى آذانهم. وقال **جعفر بن برقان**، قال لى **ميمون بن مهران**: قل لى فى وجهى ما أكره، فإنّ الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكره.. فإن كان أخوه الذى نصح له صادقاً فى حاله ، أحبّه على نُصحه، فإن لم يحبه وكره ذلك منه، دلّ على كذب الحال. قال الله سبحانه وتعالى فى وصف الكاذبين **«ولكن لا تحبون الناصحين»** . وقد كان بعض الصالحين يقول أحَبّ الناس إلىّ من أهدىَ عيوبى. وكان **عمربن الخطاب** رضى الله عنه يقول ويأمر الإخوان بذلك - رحم الله امرأً أهدى إلى أخيه عيوب نفسه. ولكن قد قيل **لمسعر بن كدام** تحب من يخبرك بعيوبك، فقال إنْ نصحنى فيما بينى وبينه فنَعَم، وإنْ قرّعنى فى الملأ فلا.

ومن أخلاق السلف قال كان لرجل إذا كره من أخيه خُلُقا عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه فى صحيفة، وهذا لعمرى فرقٌ بين **النصيحة والفضيحة**، فما كان فى السرّ فهو نصيحة، وماكان على العلانية فهو فضيحة، وقلّما تصحّ فيه النية لوجه الله تعالى لأن فيه شناعة. وكذلك الفرق بين **العتاب والتوبيخ**، فالعتاب ما كان فى خَلوة، والتوبيخ لا يكون إلاّ فى جماعة. وكذلك الفرق بين **المداراة والمداهنة**، فالمداراة ما أردتَ به وجه الله تعالى وطريق الآخرة من دفعٍ عن دين، وقصدتَ به سلامة أخيك من الإثم، وصلاح قلبه لله تبارك وتعالى، والمداهنة ما اجتلبتَ به دنيا وأردت به حظّ نفسك. وكذلك الفرق بين **الغبطة والحسد**، أنّ الغبطة أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك، ولا تحب زواله عنه بل تبقيته له وإتمامه عليه، والحسد ما أردتَ أن يكون ذلك منه لك، وأحببتَ زواله عنه، وكرهت تبقيته عليه، فهذا مكروه. فإن سعيتَ فى ذلك بقول أو فعل فهو البَغى زيادة على الحسد ، وهو من كبائر المعاصى . وكذلك الفرق بين **الفراسة وسوء الظن**، أنّ الفراسة ما توسمته من أخيك بدليلٍ يظهر لك،

أو شاهدٍ يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفرس ذلك فيه ولا تنطق به إنْ كان سوأ، ولا تُظهره ولا تحكم عليه ولا تقطع به فتأثم، وسوء الظن ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقد فى نفسك عليه، أو لسوء نيّة أو خبثِ حالٍ فيك تعرفها من نفسك فتحمل حال أخيك عليها وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم، وهو غيْبة القلب، وذلك محّرم لقول **النبى صلى الله عليه وسلم** إن الله تعالى حرّم من المؤمن دمه وماله وعرضه، وأنْ تظن به ظنّ السوء. وقوله عليه السلام إياكم والظن فإنّ الظن أكذب الحديث. فهذه **خمس معان وأضدادها** بينها فرْقٌ عند العلماء، فاعرفْ ذلك.

وينبغى أن ينصر أخاه ويعينه بماله ولسانه وقلبه وأفعاله، فإن النُصرة فى الله تعالى تكون بهذه المعانى **الأربع**: بالنفس إن احتاج إليك فى الأفعال، وباللسان إنْ ظلم فى المقال، وبالمواساة إنْ احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أنْ يساعده فى الهمّ والكرْب فى اعتقاد السلامة فيه وجميل النية له. وعليه أنْ يحفظ غيبه، وأنْ يحُسن الثناء عليه ، وينشر فضله ويطوى زلله ، ويَقبل عله. ويُقال ما من الناس إلاّ له محاسن ومساوٍ، فمن ظهرت محاسنه فغلبت مساويه فهو **المؤمن المقتصد**. فالأخ الشفيق الكريم يذكر أحسن ما يعلم فى أخيه، والمنافق اللئيم يذكر أسوأ ما يعلم فيه. ومن هذا جاء فى الخبر أستعيذ بالله من **جار السوء** الذى إنْ رأى خيراً ستره، وإنْ رأى شراً أظهره. وهذا المعنى هو سبب قول **النبى صلّى الله عليه وسلم** إنّ من البيان سحراً، إذ لكل حيث يروى آخره سببٌ ، يكون أوله خرج الحديث عليه، وهو أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فلما كان الغد ذمّه وعابه، فقال **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أنت بالأمس تُثنى عليه واليوم تذمّه، فقال والله لقد صدقتُ عليه بالأمس وما كذبتُ عليه اليوم، إنه أرضانى بالأمس فقلت أحسن ما أعلم فيه، وأغضبنى اليوم فقلت أسوأ ما أعلم فيه، فقال **رسول الله صلى الله عله وسلم** عند ذلك: إنّ من البيان سحراً... كأنه كرِه ذلك أنْ شبّهه بالسحر لأن السِحْر حرام، ولهذا قال **صلّى الله عليه وسلم** فى الخبر الآخر: البَذاء والبيان شُعبتان من النفاق. وفى الحديث الآخر: إنّ الله تعالى كرِه لكم البيان... كل البيان. وقد قال **الإمام الشافعّى** رحمه الله فى وصف **العدالة** قولاً استحسنه العلماء، قال: ما أحدٌ من المسلمين يطيع الله عزّ وجلّ حتى لا يعصيه، ولا أحد يعصى الله عز وجل حتى لا يطيعه، فمن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فهو العَدل. وقال أيضا قولاً فصلاً فى التوسط بن **الانقباض والانبساط**. قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكنْ بن الانقباض والانبساط.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالصبر والرحمة فى قوله عزّ وجلّ «وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة» ، ونعتهم بالذّلة فى قوله تعالى «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» وقال تعالى «رحماء بينهم» . وهذا كله داخل فى الاهتمام به وهو حقيقة صدقه فى الصداقة له، كما قال ولا صديقٌ حميم ، أى هميم من الاهتمام به. وقد قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغّطيه، فقال: بل تكشفون عورته! قالوا سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال ، أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويُشيعها بأعظم منها... وهذا مخرجه من الحسد الكائن فى النفس والغِل المستكّن فى القلب: أنْ يزيد الرجل على الشيء مما يسمع أو يتبعه بمثله، فيُظهر هذا غلّة. وهذا الذى استعاذ منه المؤمنون فى قولهم «ولا تجعل فى قلوبنا غلاً » الآية. وينبغى أن لا يخالفه فى شيء ولا يعترض عليه فى مراد. قال بعض العلماء إذا قال الأخ لأخيه قُم بنا، فقال إلى أين فلا تصحبه. وقال الآخر إذا قال اعطنى من مالك، فقال كم تريد، أو ماذا تصنع به، لم يقم بحق الإخاء. قال أبو سليمان الدارانى كان لى أخ بالعراق، فكنت أجيئه فى النوائب فاقول اعطنى من مالك شيأ، فكان يلقى إلىّ كيسه فاخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم فقلت أحتاج إلى شيء، فقال كم تريد، فخرجت حلاوة إخاه من قلبى.

وروينا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحرمه، ولا يخذله. بحسب المرء من الشر أن يُحقر أخاه المسلم. وفى حديث علّى عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يُخلفهم، فهو من كمُلت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحَرُمت غيبته. وفى حديث أبى أسامة الباهلى خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب، ثم قال ذروا المِراء لقلة خيره، ذروا المراء فإنّ نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان. وقال بعض السلف من لاَحَى الإخوان وماراهم قلّت وذهبت كرامته. وقال عبد الله بن الحسن إيّاك ومعاداة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجاة لئيم. وقال بعض الحكماء ظاهر العتاب خيرٌ من مكنون الحقد، ولا يزيدك لطف الحقد إلاّ وحشةً منه. وقد روينا فى الحقد على الإخوان لفظة شديدة وهو ماحدثونا عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه، قال كنت باليمن وكان لى جار يهودى يخبرنى عن التوراة، فقدم علينا يهودى من سَفر، فقلت إنّ الله تبارك

وتعالى قد بعث فينا نبياً فدعا إلى الإسلام فاسلمنا، وقد نزل علينا مصدّقا للتوراة، فقال اليهودى صدقت ، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به. إنّا نجد نعته ونعت أمّته، أنه لايحل لامرىء يعلم منهم أن يخرج من عَتَبة بابه وفى قلبه سخيمة على أخيه المسلم. وقال **بعض السلف** أعجز الناس من قصّر فى طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيّع مَن ظفر به منهم. وقال **الحسن** لا تشترِ عداوة رجل بمودّة ألف رجل. وقال **عمر بن عبد العزيز** إياك ومَن مودّته على قدر حاجته إليك، فإذا قضيتَ حاجته انقضتْ مودّته.

ومن أخلاق السلف لم يكن أحد يقول فى رَحْله هذا لى وهذا لك، بل كان كل من احتاج إلى شىء استعمله عن غير مؤامرة، وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بهذا فى قوله تعالى «**وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون**» ، معنى **أمرهم** أى أمورهم، ذكر جُماعها كالشىء الواحد بينهم، **شورى** أى مشاع غير مقسوم ولا يستبدّ به واحدهم، **ومما رزقناهم ينفقون** أى كانوا خلطاء فى الأموال، لا يميز بعضهم رَحْلَه من بعض، أى شركاء. وجاء **عُتبة الغلام** إلى منزل رجل كان قد آخاه، فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال خذا ألفين، فأعرض عنه وقال آثرتَ الدنيا على الله عز وجل. أما استحيت أنْ تدّعى الأخوة فى الله عز وجل وتقول هذا! وجاء **فتح الموصلى** إلى منزل أخٍ له وكان غائباً ، فأمر أهله فأخرَجتْ صندوقه، ففتحه فأخذ من كيسه حاجته، فذهبت الجارية إلى مولاها فأعلمته، فقال إنْ كنتِ صادقة فأنتِ حرة لوجه الله تعالى سروراً بما فعل. ورُوى أنّ **ابن أبى شبرمة** قضى لبعض إخوانه حاجة كبيرة، فجاء الرجل بهدية جليلة، فقال ماهذا، فقال ما أسديت إلىّ، فقال خذ مالك عافاك الله. إذا سألت أخاك حاجة فإنما يجهد نفسه فى قضائها. ثم توضأ للصلاة وكبّر عليه أربع تكبيرات وعدّه فى الموتى!... وعلى ذلك قال بعضهم إذا استقْضَيْتَ أخاك الحاجة فلم يقضها لله، فذكّره ثانية فلعله يكون قد نسى، فإنْ لم يقضها فعاوده ثالثة فقد يكون شُغل عنها بعذر، فإنْ لم يقضها فكبّر عليه واقرأ عليه هذه الآية «**والموتى يبعثهم الله**». وقال **ميمون بن مهران** من رضى من الإخوان بترك الأفضال، فليواخِ أهل القبور. وجاء رجل الى **أبى هريرة** ، فقال إنى أريد أن أواخيك فى الله عز وجل، فقال أتدرى ماحقّ الإخاء؟ قال عرّفنى. قال لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منى. قال لم أبلغ هذه المنزلة بعد. قال فاذهب عنى. وقال **علىّ بن الحسين** رضى الله عنهما لرجل: هل يُدخِل أحدكم يده فى كُمّ أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن؟ قال لا. قال فلستم بإخوان! وقيل إن **إبراهيم بن**

أدهم أعطى مرة حماراً كان لرفيقه بغير إذنه لرجل رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت فلم يكره ذلك. وقد روى عن ابن مسعود: لا تسأل امرأ عن ودّه إياك، ولكن انظر مافى قلبك فإنّ فى قلبه لك مثل ذلك.

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أهل البيت، قال ثلاثة من المروءة فى الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة مساجده، واتخاذ الإخوان فى الله تعالى. فمن فَضْل المؤاخاة فى الله تعالى أنه قرنها بتلاوة كتابه وعمارة بيوته. وقد جعل الاختلاف إلى المسجد سبب اجتلاب الإخاء. وفى حديث ابن عباس والحسن بن علىّ من أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى خمس خصال: أخاً مستفاداً فى الله عز وجل. وقال أبو عيينة وقد أنشد هذا البيت:

وجدت مصيبات الزمان جميعها * سوى فُرقة الإخوان هيّنة الخطْب

فقال لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما تخيل لى أنّ حسرتهم ذهبت من قلبى. وقال بعضهم ما هدّنى شىء كما هدّنى موت الأقران. ويقال إذا مات صديق الرجل فقد فَقَد عضوا من أعضائه. وأنشدونا عن العتبىّ:

ولقد بلوت الناس ثم خبرتهم * ووصلت ماقطعوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرّب قاطعا * وإذا المودة أقرب الأنساب

ويلغنى ان أخوين ابتلى أحدهما بهوًى فأظهر عليه أخاه، وقال إنى قد اعتللت بالهوى فإنْ شئت أن لا تعقد على محبتى لله تعالى فافعل، فقال ما كنتُ لأحلّ عَقْد أخوّتك لأجل خطيئتك أبدا، قال ثم عقد أخوه بينه وبين الله عز وجل أن لا يأكل ولا يشرب ، حتى يعافى الله عز وجل أخاه من هواه، فطوى أربعين يوماً فى كلها يسأله عن هواه كيف أنت منه، فكان يقول القلب مقيمٌ على حاله. ومازال أخوه الآخر ينحلّ ويسقم من الغمّ عليه، ومن تركه الطعام والشراب. قال فأزال الله الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أنْ كاد يتلف هزلاً وضرراً. وبمعناه حُدّثت عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه التقىّ ألاَ تقطعه وتهجره؟ فقال هو أحوج ماكان إلىّ فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته، أنْ آخذ بيده وأتلطّف له فى المعاتبة، وأدعو له بالعود إلى ماكان عليه. وفيما

رويناه من **الإسرائيليات** أنّ أخوين عابدين فى جبل نزل أحدهما ليشترى من المِصْرَ لحماً بدرهم، فبصر ببغىّ عند اللحّام فهويها فواقعها، ثم أقام عندها ثلاثاً، واستحىَ أن يرجع إلى أخيه من جنايته، قال فافتقده أخوه واهتّم بشأنه، فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دُلّ عليه، فدخل عليه وهو جالس مع البغىّ فاعتنقه، وجعل يُقبّله ويلزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه منه، فقال قم يا أخى فقد علمتُ بشأنك وقصتك، وماكنتَ أعزّ علّى وأحبّ منك فى يومك هذا، ولا فى ساعتك هذه. فلمّا رأى ذلك لا يسقطه عنده، قام فانصرف معه. فهذا من أحسن النيّات، وهو طريق العارفين من ذوى الآداب والمروآت، فإنْ أحبّ هذا الأخ أن يؤثر أخاه بما آثره به، ولا يقتضيه حقّ إخائه، فحَسَن، وقد فعل ذلك **عبد الرحمن بن عوف** لّما آثره **سعد بن الربيع** بالمال والنفس، فقال بارك الله لك فيهما، فآثره بما به آثره، فكأنه استأنف هِبَتَه له، لأنه قد كان ملّكه إياه، لسخاوة نفسه وحقيقة زهده وصِدْق موّدته، فكانت **المساواة** لسعد، **والإيثار** لعبد الرخمن فزاد عليه، وهذا من فضل المهاجرين على الأنصار، إذ كانت **المساواة دون الإيثار**. وقد كان **مضر بن عيسى وسليمان** يقولان مَن أحبّ رجلاً، ثم قصّر فى حقه فهو كاذب فى حبه. وكان **أبو سليمان الدارانى** يقول: هو صادق فى حبه، مفرّط فى حقه. ثم قال: لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخٍ من إخوانى لاستقللتها له. وقال: إنى لألقم الأخ من إخوانى اللقمة فأجد طعمها فى حلقى!

واعلم أن إطعام الطعام والإنفاق على الإخوان، مضاعِفٌ على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب فى الأهل والقرابات. وروى عن **علّى** عليه السلام لَعشرون درهما أعطيها أخى فى الله عز وجل أحبّ إلىّ من أن أتصدّق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضا لأن أصنع من طعام، وأجمع عليه إخوانى فى الله عز وجل، أحبّ إلىّ من أن أعتق رقبة. وأوصى **بعض الحكماء** ابنه، فقال يابنى ادخل بين الأعداء ولا تدخلنّ بين الأصدقاء، قال وكيف ذلك؟ قال الدخول بين الأعداء يكسِب الصداقة، والدخول بين الأصدقاء يوّرث العداوة.

ولا ينبغى للأخ أن يخون أخاه فى غيبه بمايكرهه، إن كان ذلك فى شيىء مباح إذا كرهه، ولاينكر عليه مالا يقوم فى علمه إذا فعله ، إن كان أخوه أعلم منه، أو كان له وجه يخرج عليه. ولا ينبغى أنْ يكذّبه فى أمره، ولا يفشينّ له سراً، ولايعرضنّه لغيبة ولا نميمة، ولا

يُحوجه إلى مداراة، ولا يُلجئة إلى اعتذار، ولا يتكلّفن له مايشق عليه، أو مالا يحبه هو منه. وقال العباس لابنه عبد الله إنى أرى هذا الرجل، يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يُقدّمك على الأشياخ ويقرّبك دونهم، فاحفظ عنى ثلاثاً، لا تفشّين له سراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولايجربنّ عليك كذبة. وفى بعض الروايات ولا تعصيّن له أمراً، ولا يطّلعن منك على خيانة. قال فقلت للشعبى وقد رواه، كل كلمةٍ خيرٌ من ألف. قال كل كلمة خير من عشرة آلاف - وأفشى بعضهم إلى أخيه سراً ثم قال له حفظت؟ قال بل نسيت. وقيل لبعض الأدباء كيف حفظك السرّ؟ قال أنا قبره. وقيل لآخر كيف تحفظ السرّ؟ فقال أجحد المخبر وأحلف للمستخبّر.

ومن أحسن ماسمعت فى حفظ السرّ، ما حدّثنى بعض أشياخنا عن إخوانٍ له دخلوا على عبد الله بن المعتز، فاستنشدوه شيأ من شعره فى حفظ السرّ فانشدهم على البديهة:

ومستودعى سراً تبوأت كتمه * فاودعته صدرى فصار له قبرا

قال فخرجنا من عنده فاستقبلنا محمد بن داود الأصبهانى فسألنَا من أين جئنا، فأخبرناه بما أنشدنا ابن المعتز فى السرّ، فاستوقفنا ثم أطرق ملياً ثم قال اسمعوا قولى:

وما السرّ فى صدرى كثاوٍ بقبرة * لأنى أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكننى أنساه حتى كأننى * بما كان منه لم أحط ساعةً خبرا لم
ولو جاز كتمُ السرّ بينى وبينه * عن السرّ والأحشا لم يعلم السرّا

وقال الثورى إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فاغضبه ثم دسّ عليه من يسأله عنك، فإنْ قال خيراً فاصحبه. وقال غيره لا تواخينّ أحداً حتى تبلوه وتُفشى إليه سرّاً، ثم اجفّه واستغضبّه وانظرْ فإنْ أفشاه عليك فاجتنبه. وقيل لأبى يزيد من أصحبُ من الناس؟ قال من يعلم منك مايعلم الله عز وجل، ويستر عليك ما يستر الله تعالى. وقيل لبعض العلماء من يصحب من الناس؟ قال من يرفع عنك ثُقل التكلّف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وقد كان جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول أثقل إخوانى علىّ من يتكلف لى وأتحفظ منه، وأخفّهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى. يريدون بهذا كله أنّ مَن لم يكن على هذه الأوصاف دخل عليه التصنّع والتزيّن، فأخرجاه إلى الرياء والتكلّف، فذهبت بركة الصُحبة، وبطلت

منفعة الأخوة. وقال بعض الصوفية لا تعاشر من الناس إلاّ مَن لا تزيد عنده ببرّ ولا تنقص بإثم، ومن يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت ، ويحمل عنك مؤنة نفسه ويكفيك مؤنة نفسك، وهذه من أعز الاوصاف في هذا الوقت كما قال رجل للجنيد قد عزّ في هذا الزمان أخ في الله تعالى ، قال فسكت عنه، ثم عاد ذلك فقال له الجنيد اذا أردت أخاً في الله عز وجل يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإنْ أردت أخا في الله تتحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندي جماعة أدلك عليهم إنْ أحببت، فهذا لعمري يكون محبا لنفسه إذا اقتضى هذا من أخيه ، لا محباً لأخ في الله تعالى ، وليس الإخاء كفّ الأذى لأن هذا واجب ولكن الإخاء الصبر على الأذى .

وقال بعض العلماء لا تصحب إلاّ أحد رجلين ، رجلاً تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أو رجلا تعلّمه شيئاً من دينه فيقبل منك، والثالث اهربْ منه ، وقال ابن أبي الحواري قال لي استاذي أبو سليمان يا أحمد لا تصحب إلاّ أحد رجلين ، رجل ترتفق به في دنياك ، أو رجل تزيد معه وتنتفع به في آخرتك... والاشتغال بغير هذين حُمق كبير، وكان المأمون يقول: الإخوان ثلاثة ، أحدهم مثله مثل الغذاء لا يُستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يُحتاج إليه في وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يُحتاج إليه... فالعبد مبتلَى بهذا الثالث، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع عنه ، والأول نعمة من الله سبحانه وتعالى على العبد، فيه ألفة وأنس، ومعه غنيمة ونفع. وكان أبو ذر يقول: الوِحْدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة . وقال بشر بن الحارث: يكون للرجل ثلاثة إخوان ، أخٌ لآخرته، وأخٌ لدنيا ، وأخٌ يأنس به ... فأخبر أنّ أخ المؤانسة قد لايكون متقرباً عابداً. وأنّ الأنس مخصوص، يقال لا يوجد إلاّ في كريم.

واعلم أن الأنس لا يوجد في كل عالِم، ولا في كل عاقل، ولا في كل عابد زاهد. ويحتاج الأنس إلى وجود معان تكون في الوليّ، فإذا اجتمعت فيه كَمُل فيه الأنس وارتفعت عنه الوَحْشَة والحِشْمة، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس، ومن لم تكمل فيه وُجِدَ فيه بعض الأنس، وإذا حصل الأنس ففيه الروح من الكروب والاستراحة من الغمّ والسكون وطمأنينة القَلب ، فكذلك عزّ من يوجد فيه الأنس لعزّة خصاله وهي سبع: علم، وعقل، وأدب، وحُسن خلق، وسخاء نفس، وسلامة قلب، وتواضع، فإن فَقَدَ بعضها لم يجد خِلاّ يأنس بكماله، من قِبَل أنّ

obeikandl.com

أضدادها وَحشة كلها، لأن الجاهل لا أنس فيه، والأحمق لا أنس به، والبخيل سيئ الخلق لا أنس عنده ، والخبيث والمتكبّر لا أنس معه، فاعرفْ هذا.

وروينا عن الأصمعي أنه ذكر عن بعض الحكماء قال: عاملوا أحرار الناس بمحض المودّة، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، وسوسُوا السفِلة بالمخافة. ومَثَلُ جُملة الناس كمَثَل جُملة الشجر، منهم مَن له ظل وليس فيه ثمر، وهذا الذى فيه نفع من الدنيا ولا ثمرة له فى العُقبَى، ويُحتاج إليه فى وقت، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا، ومنهم من فيه ظل وثمر فهذا الذى يصلح للدين والدنيا، وهو أعزّها، ومنهم مَن لاظل له ولا ثمر، وهذا هو الذى لا يُحتاج إليه، فمثله فى الشجر مثل شجر الغَضَا، وهو شوك البرية التى تسميه العامة أم غيلان، تمزّق الثياب، لا طعام فيه ولاشراب، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع، ويكثر ولا يدفع، مثله كما قال الله تبارك وتعالى "يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه لَبِئس المولى ولَبِئس العشير"، مثَله فى الدواب مثل الفارة والعقرب، وقد قيل فى وصفهم:

الناس شتّى إذا ما أنت ذقتهم * لا يستوون كما لا يستوى الشجر
ذا رَبُّ ظلٍ وهذا عنده ثمر * وذاك ليس له ظل ولاثمر

وقد أنشدنا فى مِثْل وصف هذا لبعض الأدباء

إذا كنتَ لا تُرجَى لدفع مهمة * ولم تك يومَ الحشر ممن يُشفّع
ولا أنت ذا مال يجود بماله * فعوُد خِلالٍ من إخائك أنفع

وقال بعض السلف إذا وَلِىَ أخوك ولاية فثبَتَ على نصف موّدتك فكثير. وحدثنا محمد بن القاسم القرشى عن الربيع بن سليمان عن الإمام الشافعى رحمه الله، أنه آخى رجلاً ببغداد، ثم أنّ أخاه ولِى السيبيْن فتغيّر للشافعى كما كان يعهده منه، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه هذه الأبيات :

إذهبْ فودّك من ودادى طالق * منى وليس طلاق ذات البيْن
فإن ارعويّت فإنها تطليقة * ويدوم ودّك لى على ثِنتين
وإذا امتنعتَ شفعتها بمثالها * فتكون تطليقتين فى حيضين

فإذا الثلاث أتتك منى بتةً * لم تُغنِ عنك ولاية السيبيْن

فذُكِر هذا الكلام لبعض الفقهاء فاستحسنه، وقال هذا الطلاق فقهى إلاّ أنه طلّق قبل النكاح. وقد كان الشافعى عليه السلام آخى محمد بن عبد الحكم المصرى، وكان يحبه ويقرّبه ويقول ما يقيمنى بمصر غيره، واعتلّ محمد فعاده الشافعى، فحدّثنى القرشى عن الربيع، قال سمعت الشافعى ينشد وقد عاد محمداً :

مَرِض الحبيبُ فعُدْتُه * فمرِضتُ من حذرى عليه

وأتى الحبيبُ يعودنى * فبرأتُ من نظرى إليه

وماشكّ أهل مصر أن الشافعى يفوّض أمر حلقته إليه، وأنه يستخلفه بعد موته ويأمر الناس بالحضور عنده، حتى سُئل عن ذلك فى علّته، فقيل له ياأبا عبد الله إلى من نجلس بعدك، ومن يكون صاحب الحلقة، وهم يظنون أنه يشير إلى محمد، فاستشرف لذلك محمد وتطاول لها، وكان جالسا عند رأسه، فقال سبحان الله، أيَشكُّ فى هذا؟ **أبو يعقوب البويطى**. فانكسر لها محمد ووجد فى نفسه، ومال أصحابه إلى **أبى يعقوب البويطى**. وقد كان محمد حمل علم الشافعى ومذهبه وفارق مذهب مالك، إلاّ أن البويطى كان أزهد وأورع، فحمل الشافعى نصحه للدين والنصيحة للمسلمين، ولم يداهن فى ذلك، بأن وجّه الأمر إلى أبى يعقوب وآثره، لأنه كان أولى، فلما قُبِض الشافعى رضى الله عنه انتقل محمد بن عبد الحكم من مذهبه، وفارق أصحابه، ورجع إلى مذهب مالك، وروَى كتب أبيه عن مالك وتفقّه فيها، فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضى الله عنه. وأخْمَلَ البويطى رحمه الله نفسه، واعتزل عن الناس بالبويْطة من سواد مصر، وصنّف **كتاب الأم** الذى يُنسب الآن إلى **الربيع بن سليمان** ويُعرف به، وإنما هو جَمْعُ البويطى، لم يذكر نفسه فيه وأخرجه إلى الربيع، فزاد فيه وأظهره وسمّعه منه. وقد كان البويطى حُمِل فى المحلة، ورُفع من مصر إلى السلطان، وحُبس فى شأن القرآن، فحدّثنا عن الربيع، قال : كتب إلىّ البويطى من السجن يحثنى على المجالس، ويأمرنى بالمواظبة على العِلم والرفق بالمتعلمين والإقبال عليهم، وأن أتواضع لهم . وقال كثيراً ما كنت أسمع الشافعى رضى الله عنه يقول :

أهين لهم نفسى لكى يكرمونها * ولن تُكرم النفس التى لا تهينها

ومن حق الأخوة فى الله عز وجل ما نُقل إلينا من سيرة السلف، قال كان الرجل يجىء إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم، فيقول لأهله هل عندكم دقيق؟ ألكم زيت؟ تحتاجون إلى كذا؟ فإنْ قالوا ليس عندنا اشترى لهم مصالحهم. قال ولم يكن الأخ يفرّق بين عياله وعيال أخيه يقاسمهم المؤنة، قال ويلقَى أخاه فلا يُعلمه بشىء من ذلك. وكان أبو الدرداء يقول إنى لأدعو لأربعين من إخوانى فى سجودى، أسمّيهم بأسمائهم. وقد جاء فى الحديث دعاء الأخ لأخيه بالغيب لا يُرّد. والحديث المشهور يستجاب للمرء فى أخيه مالا يستجاب له فى نفسه. فمن واجب الأخوّة تخصيصه وإفراده بالدعاء والاستغفار له فى الغيب، فلو لم يكن من بركة الأخوة إلاّ هذا كان كثير. وكان محمد بن يوسف الأصبهانى يقول: وأين مِثل الأخ الصالح؟ أهلُك يقتسمون ميراثك، وهو منفرد بحسرتك، مهتّم بما قدّمت، يدعو لك فى ظُلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى. فقد أشبّه الأخ الصالح الملائكة، لأنه جاء فى الخبر إذا مات العبد قال الناس ماخلّف؟ وقالت الملائكة ماقدّم؟ يفرحون بما قدّم من خير ويشفقون عليه، وقال بعض العلماء لو لم يكن فى اتخاذ الإخوان إلاّ أن أحدهم يبلغه موت أخيه فيترحّم عليه ويدعو له، فلعله يُغفر له بُحسن نيته له. ويقال مَن بلّغه موت أخيه فترحّم عليه واستغفر له كأنه شهد جنازته وصلّى عليه. ويقال الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء . فقد كان الإخوان يوصون إخوانهم بعدهم بدوام الدعاء لهم ويرغّبون فى ذلك، لحُسن يقينهم وصِدق نيّاتهم. وإنّ أعظم الحسرة مَن خرج من الدنيا ولم يؤاخ أخاً فى الله عز وجل، فيدرك بذلك فضائل المؤاخاة، وينال به منازل المحبين عند الله تعالى. ومن أشد الناس وَحشة فى الدنيا من لم يكن له خليل يأنس به، وصديق صِدْقٍ يسكن إليه، كما قال علّى عليه السلام : وغريبٌ من لم يكن له حبيب، ولا يوحشنك من صديقٍ سوء ظن. وأنشد بعض الشيوخ لبعضهم :

وليس غريباً من تناءت ديــاره * ولكن من يجفَى فذاك غريب

ومن كان ذا عهد قديم وذا وفا * فلو جاوز السدّين فهو قريب

وكان بعضهم يقول: أنا بمودّة من غاب عنى من بعض إخوانى أوثق منى بمودّة من يغدو علىّ ويروح فى كل يوم مرتين. وقال محمد بن داود قُرب القلوب على بعد المزار خيرٌ من قرب الديار من الديار. وليتق أن يعاشر أخاه بخَمس خصال فليست من الأدب ولا المروءة: أولها أن لا يُلزمه بما يكره مما يشق عليه، والثانية أن لا يسمع فيه بلاغة ، ولا يصّدق عليه مقالة،

والثالثة أن لا يكثر مسائله من أين تجيء وإلى أين تذهب، وأن لا يتجسس عليه ولا يتحسس عنه، والفرق بينهما أن التجسس يكون فى قفو الآثار، والتحسس يكون فى تطلّع الأخبار، فقد روينا كراهة هذه الخصال فى سيرة السلف.

واعلم أن للناس فى التعارف سبع مقامات، بعضها فوق بعض، فأوّل ذلك المعرفة عن الرؤية أو السمع فقط، فلهذا حُرمة الإسلام وحق العامة؛ ثم المجاورة وله حق الجوار، وهو ثانى حقوق الإسلام وهذا هو الجار الجنب؛ ثم المرافقة فى طريقٍ أو سفر، وهذا هو الصاحب بالجنب فى أحد الوجهين من الآية، فلهذا ثلاثة حقوق، لأنه قد جمع حُرمة الإسلام، وحُرمة الجوار، وزاد عليها بأنه ابن سبيل؛ ثم الصُحبة وهى الملازمة والاتباع، فهذا فوق ذلك؛ ثم الصداقة وهى حقيقة الأخوة، ومعها تكون المعاشرة، وهو اسم تكون معه المخالطة، وتوجد فيه المؤانسة، وهو يحكم بالمزاورة والمبايتة والمؤاكلة، وهذا جملة العِشْرة، فالمعاشرة مأخوذة من العشير هو الخليط المقارب، ولذلك سمى الزوج عشيراً فى قول النبى صلى الله عليه وسلم ويكفُرْن العشير. وقد قال الله عز وجل فى تسمية المعاشر وفى قربه "لبئس المولى ولبئس العشير" يعنى ابن العم المختلط به، فقيل منه معاشرة على زنة مفاعلة، لأنه شئ يقع بين اثنين لا محالة كان كل واحد قد فعل مثله، أى يفعل هذا مثل ما يفعل هذا، مثل المضاربة والمقاتلة والمشاتمة، إذا فعل كل واحد بصاحبه كفعله به؛ ثم الأخوة فوق الصداقة وهذا لا يكاد يكون إلا بين النظراء فى الحال والمتقاربين فى الحُسن والمعانى، بأنْ يوجد فى أحدهما من القلب والهمّة والعلم والخُلُق ما يوجد فى الآخر وإنْ تفاوتا، كما قال تبارك وتعالى "إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين"، وليسوا من جنسهم ولا على وصفهم فى الخِلْقة، ولكن لمّا تشابهت قلوبهم وأحوالهم آخى بينهم، فهذه أخوّة الحال، وهى حقيقة الصداقة؛ ثم المحبة وهى خاصية الأخوّة، وهذا يجعله الله تبارك وتعالى من الألفة، ويوجده من الأنس فى القلوب، يتولاّه بصُنعه ولا يوليه غيره، وهذا ارتياح القلوب، وانشراح الصدور ووجْد السرور، وفقْد الوحشة، وزوال الحشمة؛ ثم الخليل وهذا فوق الحبيب، ولا يكون هذا إلا فى عاقلَيْن عامليْن عارفيْن، على معيارٍ واحد، وطريقٍ واحد، وهذا أعز موجود وأغرب معهود. والخُلّة مأخوذة من تخلّلِ الأسرار، ومعها تكون حقيقة الحب والإيثار، فكل خليلٍ حبيب، وليس كل حبيب خليلا، لأن الخلة تحتاج إلى فضل عقل ومزيد علم وقوة تمكين، وقد لا يوجد ذلك فى كل محبوب، فلذلك عزّ طلبه وجلّ وصفه .وقد رفع الله عز وجل نبيّه محمداً صلّى الله

عليه وسلّم فى مقام المحبة فأعطاه الخلة ليلحقه بمقام إبراهيم ، فكانت الخلة مزيد المحبة. ومنه ما روى عن **النبى صلّى الله عليه وسلّم** لوكنتُ متخذاً من الخلق خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله عز وجل... فلما اتخذه خليلاً لم يصلح أن يُشرِك فى خلة الخالق ، ثم قال ولكنْ أخوّة الإسلام ، فاوقفه مع الأخوة، لأن فيها مشاركة فى الحال، كما فعل بعلىّ عليه السلام، وعدَلَ به عن النبوّة كما عدل بأبى بكر عن الخلة. وفى الحديث الآخر أن **النبى صلى الله عليه وسلّم** صعد المنبر فرحاً مستبشراً فقال: الا إنّ الله تبارك وتعالى قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا ، فانا حبيب الله عز وجل، وأنا خليل الله.

واعلم أنه ليس بين الأخوَين والصاحبين رياء فى أعمالهما، وليس بين الرجل وأهل بيته، ولا بين المسافر ورفقائه رياء ولا سمعة ، ولا عليه منهم اختفاء ولا خلوة ، فإنْ صحبَه أخوه هذا فى سفر كانت حرمته عليه ألزم، وحقه أوجب، فينبغى أن لا يخالفه ولا يعترض عليه، إنْ أحب النزول فى منزل لم يكره أخوه ذلك ، وإنْ اختار أحدهما الرحيل لم يحب الآخر المقام ، وإن سار أحدهما لم يقف صاحبه ، وإن استراح الآخر وقف له رفيقه، وإنْ اشترى شيئا لم ينهه عنه، ولا يستأثر بمطعوم ولا مشروب عليه بل يؤثره بذينك. وفى الخبر ما اصطحب اثنان قط إلاّ كان أحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه، وروينا أيضا عن **رسول الله صلّى الله عليه وسلم** أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه، فاجتنَى منها سواكيْن مِن أراك، أحدهما معوّج والآخر مستقيم، فحبَس المعوج لنفسه ودفع المستقيم إلى صاحبه، فقال يا رسول الله أنت كنت أحق بالمستقيم، فقال ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار، إلاّ سأله الله عن صُحبته، هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه. ومن كان ناظراً فى أخوة أخيه أو فى صحبته إلى كثرة أعماله، أو واقفاً مع أكمل أحواله، دلّ على جهله بهذا الطريق، وإنما المُعَوّل على حقائق القلوب وسلامة العقول لأن إليها الأمر مردود.

وقد جاء فى مخالطة المسلمين، وفى الأكل مع الإخوان، والاختلاط بالعامة، والمشى فى الأسواق، واشتراء الحوائج، وحملها للتواضع، ما يكثُر رسمه ويطول وصفه. وكذلك كان سيرة الصحابة وشيمة التابعين بإحسان، منهم عمر رضى الله عنه، كان يحمل القِرْبة على ظهره لأهله، وعلّى رضى الله عنه، كان يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لا يُنقص الكامل من كماله * ما جرّ من نفع إلى عياله

ومنهم **أبيّ وابن مسعود وحذيفة وأبو هريرة**، كانوا يحملون حِزَم الحطب وجِرَب الدقيق على أكتافهم وظهورهم، **وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين محمد صلّى الله عليه وسلم**، كان يشترى الشيء فيحمله بنفسه، فيقول له صاحبه اعطنى أحمله عنك، فيقول صاحب الشيء أحق بحمله، وكان **الحسن بن علّى** عليهما السلام يمر على السُوّال فى الطريق وبين أيديهم كِسَر ملقاة فى فى الأرض فيسلّم عليهم، فيقولون هلّم الغداء يا ابن بنت رسول الله، فيُثنى رجله عن بغلته، وينزل فيقعد معهم على الأرض ويأكل، ثم يركب ويقول إن الله تبارك وتعالى لا يحب المستكبرين، ثم يدعوهم بعد ذلك إلى منزله، فيقول للخادم هلّمى ما كنت تدخرين، فيأكلون معه.

وروينا فى **الإسرائيليات** أن حكيماً من الحكماء صنّف ثلاثمائة وستين مصنّفا فى الحكمة، حتى ظن أنه نال منزلة عند الله تعالى، فأوحى الله إلى نبيّه، قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقاً، وإنى لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال فتخلّى وانفرد فى سرْبٍ تحت الأرض، وقال قد بلغت محبة ربى، فأوحى الله عز وجل إلى النبى قل له إنك لم تبلغ رضاى، قال فدخل الأسواق، وخالط العامة وجالسهم، وأكل الطعام بينهم، ومشى فى الأسواق معهم، فأوحى الله تبارك وتعالى الآن بَلَغْتَ رضاىّ. فلو أيقن البائس المتصنّع للخلْق، الأسير فى أيديهم، الرهين لنظرهم، أنّ الخلْق لا يُنقصون من رزق ولا يزيدون فى عُمر، ولا يرفعون عند الله ولا يضعون لديه، وأنّ هذا كله بيد الله عز وجل لا يملكه سِواه، ولو سمع خطاب المولى لاستراح من جهد البلاء، إذ يقول الله عز وجل "**إن الذين تدْعُون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه**" مع قوله تعالى "**إنّ الذين تدْعُون من دون الله عباد أمثالكم**"، فلو عقل ذلك لاطّرح الخلْق عن قلبه، اشتغالاً بمُقلّبه، ولأعرض عن الناس بهَمِّه نظراً منه إلى مُهِّمه، وأظهر حاله وكشف أمره تقوّياً بربه، وغُنيةً بعمله، فلم يُبال أنْ يراه الناس على كل حال يراه فيه مولاه، إذ كان لا يعبد إلاّ إيّاه، ولا يضره ولا ينفعه سواه، فعمل ما يصلحه وإنْ كان عند الناس يضعه، وسعى فيما يحتاج إليه وإنْ كان عند المولى يُزرى عليه، ولكن ضَعُفَ يقينه فسَوِىَ إلى الخلق نظره، وأحب أن يستر عنهم خَبَره، لإثبات المنزلة عندهم، ولاستخراج الجاه لنفسه، فموّه بحالٍ على مَن لا حال له، ووَهِمَ بمقام عند مَن ليس له مقام،

واعتقدوا فضله بذلك لنقصهم، وتوهموا به علمه لجهلهم، ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم. حدّثونا عن يونس بن عبد الأعلى قال قال لى الشافعى رضى الله عنه: والله ما أقول لك إلا نصحا، أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما يُصلحك فافعله. وحدثونا عن الثورى قال: رِضا الناس غاية لا تُدرك، فأحمقُ الناس مَن طلب ما لا يدْرَك. وقد قال بعض الحكماء فى معناه قولا منظوماً :

من راقب الناس مات غماً * وفاز باللذة الجسور

ونظر أبو محمد سهل إلى رجل من الفقراء فقال له اعمل كذا وكذا، فقال يا أستاذ لا أقدر على هذا لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه فقال لا ينال العبد حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: عبدٌ يُسقط الناس عن عينه لا يرى فى الدار إلاّ هو وخالقه، وأنّ أحداً لا يقدر أنّ يضره ولا ينفعه، أو عبد أسقط الناس عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه... وحدثونا عن إمام الأئمة الحسن بن يسار البصرى رحمه الله، أن رجلا قال له يا أبا سعيد، إنّ قوماً يحضرون مجلسك ليس بُغيتهم الفائدة منك ولا الأخذ عنك، إنما همّهم تتبع سقْط كلامك وتعنتك فى السؤال ليعيبوك بذلك، فتبّسم الحسن ثم قال هوّن عليك يا ابن أخى، فإنى حدّثت نفسى بسكنى الجنان فطمعت، وحدثت نفسى بمعانقة الحور الحسان فطمعت، وحدّثت نفسى بمجاورة الرحمن فطمعت، وما حدّثت نفسى قط بالسلامة من الناس، لأنى قد علمت أنّ خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم، فكيف أحدّث نفسى بالسلامة منهم؟ وبمعناه ما روى عن موسى صلّى الله عليه وسلّم، أنه قال: يارب احبس عنى ألسنة الناس، فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى، هذا شىء لم أفعله بنفسى فكيف أفعله بك، وفى لفظ آخر: لو خَصَصْتُ بهذا أحداً لخصصت به نفسى. وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول ما من يوم أصبح فيه حيا وأمسى ولا يرمينى فيه الناس بداهية، إلاّ عددته نعمةً من الله تعالى علىّ، وأنشد :

وإن امرأ يُمسى ويُصبح سالماً * من الناس إلاّ ما جنا لسعيد

وقد جعل الله تبارك وتعالى فى المخالطة للمؤمنين من البركة ما لو لم يجىء فيه الأثر إلا هذا كان فيه كفاية. وروينا أن النبى صلّى الله عليه وسلّم كان يقول اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس، التمس بركة أيدى المسلمين. وروينا فى الخبر خير الأصحاب عند الله عز

وجل أرفقهم بصاحبه، وخير الجيران أرفقهم بجاره، وإياك أنْ تصحب جاهلاً فتجهل بصُحبته، أو غافلا عن مولاه متبّعا لهواه فيصدك عن سبيله فتردَى، كما قال سبحانه وتعالى "**فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون**"، فأول الاستقامة **صُحبة العلماء بالله عز وجل**، وقال تعالى "**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبّع هواه**"، وقال تعالى "**فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها واتبّع هواه فتردى**"، أى فتكون رَدِيّاً، وقيل فتهلك. وقال تعالى "**فأعْرِضْ عمّن تولّى عن ذكرنا**"، ففى دليله الإقبال بالصُحبة على من أقبل إلى ذِكْره تعالى، والإعراض عمّن أعرض عن وجهه، فلا تصحبّن إلاّ مقبلاً عليه كما قال الله عز وجل "**واتبّعْ سبيل من أناب إلىّ**"، وإياك أنْ تصحب من الناس خمسة: المبتدع، والفاسق، والجاهل، والحريص على الدنيا، والكثير الغيبة للناس، فإنّ هؤلاء مفسدة للقلوب مَذهبة للأحوال، مَضرّة فى الحال والمال... وقد كان **سفيان الثورى** رحمه الله يقول: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. وقال **سعيد بن المسيب**: لا تنظروا إلى الظلمة فتَحبَط أعمالكم الصالحة. وقد كان **صعصعة بن صوحان** يقول : إذا لقيت المؤمن فخالطه مخالطة، وإذا لقيتَ المنافق فخالفه مخالفة. وقد قال أحسن الواصفين فى وصف أوليائه المتّقين "**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**"، أى سلامةً، الألف بدل من الهاء لازدواج الكَلِم، والمعنى أى سلمنا من إثمكم وسلمتم من شرّنا، وقد كان **أبو الدرداء** يقول فى زمانه: كان الناس وَرَقاً لا شوك فيه، وهم اليوم شوْك لا ورق فيه، إنْ ناقدتهم ناقدوك، وإنْ تركتهم لم يتركوك، فأقرضهم من عَرْضَك ليوم فقرك. وكان يقول كل يوم أصبح لا يرمينى الناس فيه بداهية أعُدّه نعمةً من الله تعالى علىّ. وقال حكيم الحكماء **صلّى الله عليه وسلم** مَن خالط الناس وصبر على أذاهم أفضل ممن لم يخالطهم ولم يصبر على أذاهم. وقال العلاّم ذو الجلال والإكرام "**أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة**"، أى يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيىء. وقال عز وجل فى الكلام المفسّر "**إدفع بالتى هى أحسن**"، يعنى بالكلمة الحسنى، "**فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم**"، ثم قال عز وجل "**وما يُلقّاها**" يعنى الكلمة، "**إلاّ الذين صبروا**" أى على أمر الله تعالى وعلى الفيظ وعن الغضب، "**وما يُلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم**"، أى من الحِلم والعِلم، وقيل ذو حظ عظيم عند الله عز وجل من النصيب والجزاء. وقد قال **لقمان الحكيم** قولاً متوسطا: يا بُنّى لا تكن حلواً فتُبلع، ولا مُرّاً فتُلفَظ. المعنى لا تمكّن الناس من نفسك، ولا تتابعهم فى كل شىء فلا يبقوا عليك وينبسطوا إليك، ولا تنافرهم

وتخالفهم فى كل شيء فيجانبوك ويرفضوك فيقعوا فيك. وقال بعض السلف: لا تصحب إلاّ مريداً، وكل خليل لا يريد ما تريد فانبذْ عنك صُحبته. وقال بعض علماء العربية: الصاحب كالرقعة فى الثوب، إنْ لم تكن من جنسه شانته. وقال بعض الحكماء : كل إنسان مع شكله كما أنّ كل طير مع جنسه. وقد كان مالك ابن دينار يقول مثل هذا، وقد لا يتفق اثنان فى عِشْرة ودوام صُحبة إلاّ وفى أحدهما وصفٌ من الآخر، وإنّ أشكال الناس كأجناس الطير. قال ورأى يوما غراباً مع حمامة فعجب من ذلك وقال: كيف اتفقا وليسا من شكل. قال ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا. يُقالُ إذا اصطحب اثنان برهة من الزمان ولم يتشاكلا فى الحال، فلابد أنْ يفترقا. وقد أنشدنا بعض العرب لبعض الحكماء فى معناه :

وقائـــل لِمـــا تفرقتمـــا * فقلتُ قولاً فيه إنصـاف

لم يكُ من شكلى ففـــارقتهُ * والناس أشكـال وإلاّف

وقد روينا فى حديث أنّ الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. قيل معناه فى المذهب والخلُق. وفى هذا الخبر زيادة -ولو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق، وفيه مؤمن واحد، لجاء حتى يجلس إليه، ولو أنّ منافقاً دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن، وفيه منافق واحد، لجاء حتى يجلس إليه. وليس الائتلاف يقع بنفس الاجتماع ووقت الاتفاق، فإنما الائتلاف يكون بمجالسة الحال ومشاكلة الأخلاق، لأنهم شبّهوا أجناس الناس بأجناس الطير، وقد يتفق الطيران من جنسين، ويتجامعان فى مكان، فلا يكون ذلك ائتلافا فى الحقيقة، ولا اتفاقاً فى الخُلُقية، لتباينهما فى التشاكل. ولا يتبين ذلك فى الاجتماع، وإنما يتبين فى الطيران إذا كانا معاً، فأمّا إذا ارتفع أحدهما ووقع الآخر، وعلا أحدهما وقصّر الآخر، فلابد من افتراقٍ حينئذ لفقد التشاكل، ولابد من مباينةٍ لعدم التجانس عند الطيران، فهذا مثال ما ذكرناه من الافتراق لعدم حقيقة تشاكل الحال.

واعلم أنّ الائتلاف والاختلاف يقع بين اثنين إذا اشتركا وافترقا فى أربعة معان: إذا استويا فى العقود، واشتركا فى الحال، وتقاربا فى العلم، واتفقا فى الأخلاق، فإنْ اجتمعا فى هذه الأربع فهى التشاكل والتجانس، ومعه يكون الائتلاف والاتفاق. وإنْ اختلفا فى جميعها فهو التباعد والتضاد، وعنده يكون التباين والافتراق. وإنْ اتفقا فى بعضها واختلفا فى البعض كان بعض الاتفاق وبعض الاختلاف، فيوجد من الائتلاف بمقدار ما وُجِد من

التعارف، ويوجد من الاختلاف نحو ما فُقِد من الاتفاق، وهذا هو تناكر الأرواح لتباعد نشأتها وتشامّها فى الهواء. وذلك الأول هو تعارف الأرواح بقرب التشامّ باجتماع الأوصاف.

وحدّثت عن **يعقوب** ابن أخى معروف رحمهما الله، قال جاء **الأسود بن سالم** إلى عمّى **معروف** وكان مؤاخياً له، فقال إن **بشر بن الحارث** رحمه الله يحب مؤاخاتك، وهو يستحى أنْ يشافهك بذلك، وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوّة يحتسبها ويَعْتَدّ بها، إلاّ أنه يشترط فيها شروطا: لا يحب أنْ يُشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة فإنه يكره كثرة الالتقاء. فقال **معروف** رحمه الله: أما أنا فلو أحببت واحداً لم أحب أنْ أفارقه ليلاً ولا نهاراً، ولزرته فى كل وقت، ولآثرته على نفسى فى كل حالٍ. ثم ذكر من فضل الأخوّة والحب فى الله عز وجل أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين **علىّ** عليه السلام، فشاركه فى العلم، وقاسمه فى البدن، وأنكحه أفضل بناته وأحبّهن إليه، وخصّه بذلك لمؤاخاته. وإنى أشهدك أنى قد عقدت له أخوّة بينى وبينه، وأعتقده أخاً فى الله عز وجل لرسالته، ولمسألتك علىّ أنْ لا يزورنى إنْ كرِه ذلك، ولكنى أزوره متى أحببت، وآمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها، وآمره أنْ لا يُخفِى علىّ شيئاً من شأنه، وأن يُطلعنى على جميع أحواله. قال فانصرف بذلك **أسود بن سالم** فأخبربه **بشراً** فرضى بذلك وسُرّ به. فهذا **أسود بن سالم** أحد عقلاء الناس وفضلائهم فكان فيه اتساع للأصحاب وصبر عليهم، وهو الذى أشار **معروف** به على الرجل الذى سأله مستشيرا، فقال يا أبا محفوظ، هذان الرجلان إماما هذا البلد فاشِرْ علىّ أيهما أصحب، فإنى أريد أن أتأدّب به: **أحمد بن حنبل** أو **بشر بن الحارث** رضى الله عنهما. قال له **معروف** لا تصحب أحدهما، فإن **أحمد** صاحب حديث، وفى الحديث اشتغال بالناس، فإنْ صحبته ذهب ما تجد فى قلبك من حلاوة الذِكر وحب الخَلوة، وأما **بشر** فلا يتفرغ لك ولا يُقبل عليك شُغلاً بحاله، ولكن اصحب **أسوّد بن سالم** فإنه يصلح لك ويقبل عليك. ففعل الرجل ذلك فانتفع به، وإنمّا ضمّه **معروف** رضى الله عنه إلى **أسود** دونهما، لأنه كان أليق بحاله وأشبه بوصفه. وكذلك روينا فى حديث المؤاخاة الذى آخى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فآخى بين اثنين شكْلين فى العِلم والحال، آخى بين **أبى بكر وعمر** وبين **عثمان وعبد الرحمن** وهما نظيران، وآخى بين **سلْمان وأبى الدرداء** وهما شكلان فى العلم والزهد، وآخى بين **عمّار وسعد** وكانا نظيرين، وآخى بين **علىّ وبينه** رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا

محمد وآله أجمعين، وهذا من أعلى فضائله، لأن عمله من علمه، وحاله من وصفه، ثم آخى بين الغنى والفقير ليعتدلا فى الحال، وليعود الغنى على أخيه الفقير بالمال.

وقال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى إذا آخيت أحداً فى هذا الزمان، فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه، فإنك لا تأمن أن يعنيك بشرّ من الأمر الأول. قال أحمد فجرّبته فوجدته كما قال. وقال بعض العلماء: الصبر على مضض الأخ خيرٌ من معاتبته، ومعاتبته خير من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة. وقال بعضهم: كَدر الجماعة خيرٌ من صفو الفُرقة، ومثل الأخوّة مثل الزجاجة الرقيقة مالم تحفظها وتوّقها كانت معرّضة للآفات. واستتمام الإخاء إلى خير الوفاة أشد من ابتدائها فى حال الحياة. وقال بعض الأدباء: الناس أربعة: فواحد حلو كله فهذا لا يُشبَع منه، وآخر كله مُرّ وهذا لا يؤكل منه، وواحد فيه حموضة فخذ من هذا قبل أنْ يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه إذا احتّجت إليه. وقال بعض الأئمة: الناس أربعة: فاصحب ثلاثة ولا تصحب واحداً: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فهذا عالم فاتّبعه، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهذا نائم فنبهّوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فهذا جاهل فعلمّوه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهذا منافق فاجتنبوه. ومثل هذا الرابع قول سهل: ماعُصِى الله عزّ وجلّ بمعصية شرّ من الجهل، وأعظم من الجهل الجهل بالجهل. وقال بعض الأدباء: الناس ثلاثة، فاصحبْ رجلين واهرب من الثالث: رجل أعلم منك فاصحبه تتعلم منه، ورجل أنت أعلم منه يقبل منك فاصحبه تُعلّمه، ورجل معجب بنفسه لا علم عنده ولا تعلّم فاهرب من هذا. وكان أبو مهران يقول: أخرجُ من منزلى فأنا بين ثلاثة : إنْ لقيتُ مَن هو أعلم منى فهو يومٌ فائدتى أتعلّم منه، وإنْ لقيتُ من هو مثلى فهو يوم مذاكرتى، وإنْ لقيت من هو دونى فهو يوم مثوبتى، أعلّمه فاحتسب فيه الأجر. وقال أبو جعفر محمد بن علّى لابنه جعفر بن محمد عليهم السلام: لا تصحبنّ من الناس خمسة واصحب من شئت: الكذّاب فإنك منه على غرَر، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد ويبعّد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شىء، يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يُسلمك وماله ونفسه عند الشدة، والفاجر فإنه يبيعك بأكلة أو بأقل منها.

واعلم أنّ الأخوّة فى الله عز وجل، والمحبة فى الله تعالى، وحُسن الصُحبة، كانت طرائق

السلف الصالح، قد درست اليوم محاجُّها وعَفَت آثارها، فمن عمل بها فقد أحياها، ومَن أحياها كان له مِثْل أجر مَن عمل بها، فمن رزقه الله أخا صالحاتطمئن به نفسه ويصلح معه قلبه فهي نعمة من الله عز وجل مضافة إلى محاسن نِعَمه، والحمد لله وحده وصلّى على سيدنا محمد وآله.

الفصل الرابع والأربعون

فيه ذكر التزويج وتركه أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء في ذلك

قال سبحانه وتعالى **وأنكحوا الأيامى منكم** الآية، فأمر المحتاجين وندَبَ المعصومين، فالنكاح فرضٌ مع الحاجة، وسنّة على الكفاية، ثم وعدهم تعالى الغِنَى على الفقر، فالغِنَى على الغَنيّ يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيراً من الزجر فيغنيه بالأجر، ويكون فقيراً من عدم الحكم فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيرا بالضيْعة والشتات وفقْد المنزل والأثاث فيغنيه بوجود ذلك. وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم "**والله واسع عليم**"، فهو واسع لغناهم عن معاني فقرهم عليهم بحالهم، وما يصلحهم فيما لا يعلمون على مقادير رتبهم. وروى **الحسن عن أبي سعيد عن النبي صلّى الله عليه وسلم** من ترك التزويج مخافة العيْلة فليس منا. وروينا عن **النبي صلى الله عليه وسلم** إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فانكحوه. الاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وفي الخبر من نكح لله عز وجل وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى. وهذا أدنى حال تُنال به الولاية، لأنها مقامات، لكل مقام عمل من الصالحات. إلاّ أنّا روينا أنّ **بشر بن الحارث** قيل له إنّ الناس يتكلمون فيك، فقال وماعسى يقولون، قيل يقولون إنك تاركٌ السنّة، يعنون النكاح، فقال قلّ لهم إني مشغولٌ بالفرض عن السنّة. وقال مرة ما يمنعني من ذلك إلاّ آية في كتاب الله تعالى قوله "**ولهن مثل الذي عليهن**"، ولعسى أن لا أقوم بذلك. وكان يقول لو كنت أعول دجاجة لخفتُ أنْ أكون جلاداً على الجسر. هذا يقوله في **سنة عشرين ومائتين**، والحلال والنساء أحمد عاقبةً، فكيف بوقتنا هذا؟ فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمِنَ الفتنة ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه فيتشتت همّه، أو تقطعه عن حُسن الإقبال على الخدمة من مسامرة الفكر ومحادثة النفس